الفصل الثالث عشر

موقف الإستشراق الأمريكي
من دراسة المدينة العربية الإسلامية

لم يحظ موضوع الإستشراق بصورة عامة ودور المستشرقين في دراسة التراث العربي الإسلامي خاصة باهتمام الباحثين العرب بما يتناسب وضخامة الإنجازات الإستشراقية. فكان كتاب (المستشرقون) الذي ألفه .الأستاذ نجيب العقيقي في الستينيات أول مبادرة للكتابة الواسعة عن هذا الموضوع. فهو كتاب واسع ويقع في ثلاثة أجزاء[1]. ويتضمن تراجم المستشرقين في شتى أرجاء العالم على وفق البلدان التي ينتمون إليها. الكتاب عمل مجيد؛ لأنه يقدّم للباحث معلومات عن إنجازات كل مستشرق في حقول التراث العربي الأسلامي المختلفة سواء أكان ذلك في التاريخ أم الفلسفة أم في الفقه والحديث والأدب والشعر أم في تحقيق المخطوطات الرائدة. لذلك صار مصدراً أساسيا يرجع إليه من يريد التعرف على المستشرق الذي يودّ التعرف على إنجازاته وإسهاماته وسيرته العلمية. ومع هذا فإن الكتاب لا يعدّ دراسة تحليلية لمواقف هؤلاء المستشرقين من التراث العربي ولفلسفاتهم أو تفسيراتهم لمختلف الجوانب التي أنشغلوا بها. وضمن هذا الإطار فقد بدأ اهتمام ملحوظ في البحث عن دوافع المستشرقين في دراساتهم وإبراز مواقفهم من الحضارة العربية والتراث العربي فأسهمت الدكتورة عائشة عبد الرحمن مثلاً بالكتابة عن هذا الموضوع في كتابها (التراث العربي بين ماضٍ وحاضر)[2] إذ تناولت في أحد جوانبه الهدف من توجّه المستشرقين لدراسة التاريخ العربي، وخلصت إلى أنهم كانوا مدفوعين بدوافع سياسية. وبفعل الرؤية نفسها كتب مالك بن نبي موضوعه عن (إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث)[3]. وقد ركّز فيه أيضاً على تشخيص دوافع الدراسات الإستشراقية وأبان عن مواقفهم في الدسّ على الفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي. كذلك بالإمكان تصنيف دراسة الدكتور عرفان عبد الحميد حول (المستشرقون

(١) نجيب العقيقي: المستشرقون (ط/ ٢/ ١٩٦٥مصر).

(٢) د. عائشة عبد الرحمن: تراثنا بين ماض وحاضر (دار المعارف بمصر) ص ٥٢.

(٣) مالك بن نبي: أنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث (بيروت).

والإسلام)[1]. فهي أيضا تهدف إلى إبراز الطابع التعصبي الذي غلب على دراسات عدد من المستشرقين ضد الإسلام، وقد أشار إلى أسماء عدد من المستشرقين المتحاملين في كتاباتهم على التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.

ومن الجانب الآخر هناك جملة من الدراسات العربية التي ركّزت على دراسة جانب إستشراقي واحد دون غيره، كما هو الحال في مقالة يعقوب أفرام منصور حول (تطور الإستشراق الإنكليزي)[2]. وتناول فيه ذكر بعض المستشرقين البريطانيين البارزين خلال مدة القرن التاسع عشر للميلاد، وبحث الدكتور محمود زايد حول (المستشرقون البريطانيون وموقفهم من التاريخ العربي)[3].

ليس هدف هذه الدراسة الخوض في بحث تطوّر الدراسات الإستشراقية وأهدافها ودوافعها، غير أنه من المهم القول بأن هذه الدراسات أو بالأحرى اهتمامات المستشرقين في دراسة جوانب مختلفة من تراثنا قد ارتبط ارتباطاً مباشراً بأهمية البلاد العربية والإسلامية عموماً من النواحي السياسية والإستراتيجية والإقتصادية بالنسبة إلى العالم الأجنبي. فتوجهت أطماع الأجانب إلى الإستحواذ على المواضع الهامة منه منذ مدة طويلة. والمعروف أن هذه الأطماع لم تكن وليدة القرن التاسع عشر أو القرن العشرين إنما ترجع إلى حقب قديمة جداً، وهناك أمثلة متعددة تؤكد ذلك منها على سبيل المثال التوسعات العسكرية اليونانية خلال مدة الاسكندر المقدوني التي كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى فرض السيطرة العسكرية على المناطق التي تتمتع بأهمية إستراتيجية واقتصادية، وكان الخليج والمحيط الهندي من بين تلك الأهداف المباشرة في حملته التي وصلت إلى مياه الخليج، المنطقة التي أدت دوراً اقتصادياً وتجارياً بالنسبة إلى الغرب آنذاك لوقوعها على طريق التوابل الذي يبدأ من الهند. في هذه الحملات العسكرية توجهت أقلام بعض الكّتاب اليونانيين للكتابة عن هذه المنطقة والتعرف على مواردها الإقتصادية وطبيعتها الجغرافية؛ فألف فلافيوس أريان اليوناني مثلاً عدّة كتب من بينها كتابه عن حملات الأسكندر ويقع في خمسة عشر قسماً وقد

---

(١) د. عرفان عبد الحميد: المستشرقون والإسلام (بغداد ١٨٦٩).

(٢) يعقوب أفرام نصور: تطور الاستشراق الإنكليزي، مجلة المعرفة ص ٩٢-١٠٦.

(٣) د. محمود زايد: المستشرقون البريطانيون وموقفهم من التاريخ العربي مجلة الفكر العربي / عدد٢/ ١٩٧٨ ص ١٢٠-١٢٧.

وصف في ثمانية أقسام من هذا الكتاب أحوال منطقة الخليج والهند. كما أن الرحال اليوناني المشهور نيرخوس صاحب الرحلة الجغرافية من الهند عبر مياه الخليج ـ شط العرب كان هو الآخر قائداً ضمن حملات الاسكندر. لذلك فإن الدافع السياسي يعدّ أساساً في اهتمامات المؤرخين والكتّاب الأجانب للكتابة عن الشرق. ومع ذلك فمن الصعب القول بأن جميع الكتابات الإستشراقية دون استثناء، كانت كتابات مدفوعة بدافع الحقد والتعصب أو أنها قد أنجزت من أجل تحقيق المآرب السياسية الإستعمارية لدولهم. وذلك لأن هناك عدداً غير قليل من الدراسات والأعمال الإستشراقية تستحق التقدير والثناء؛ لأنها أفادت الكتابة التاريخية بتوفيرها العديد من المخطوطات المحقّقة لا سيما خلال الربع ألاول من القرن العشرين(١).

ومهما يكن فإن المدة التاريخية التي أعقبت الثورة الصناعية في أوربا المتمثّلة بزيادة الفائض الإنتاجي وتكدّسه في أسواق أوربا قد دفع الغرب إلى التوجّه نحو العالم الجديد المكتشف والإنتفاع من أسواقه. حينئذ بدت الرغبة في التعريف على أحوال الشرق الأدنى منه والأقصى وشؤونه التاريخية والإقتصادية والسياسية. لذلك فإن المنطقة العربية شهدت منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين تصارعاً حاداً بين الدول الغربية نفسها حول السيطرة على أكبر حصّة ممكنة من عطاء المنطقة الإقتصادي والأستراتيجي، وقد اتخذ هذا التصارع أشكالاً متنوعة.والمهم أنه خلال هذه المدة من التنافس والتصارع نشطت حركة التأليف عن هذه المنطقة والتعريف بأحوالها فنشطت مثلاً حركة البعثات التنقيبية الأثرية الألمانية والإنجليزية والفرنسية والأمريكية. وكان هدف هذه النشاطات في الظاهر الكشف عن المعالم الأثرية للمناطق التي عملت بها ونقّبت بها؛ غير أنها في الباطن كانت تهدف إلى خدمة سياسيّ الدول التي شجّعت على إرسالها بتوفّير المعلومات التاريخية الثمينة عن أهمية هذه البلدان من أجل فرض السيطرة السياسية. كذلك فإنها أغنت المتاحف الأجنبية بما نقلته من آثار غنيّة تمّ العثور عليها بسهولة في هذه المناطق التي تمتلك أصالة حضارية قديمة.

لقد اهتمت الدراسات الإستشراقية في جميع الجوانب الحضارية والسياسية

(١) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج١ ص ٦٠-٦١؛ رزوق عيسى: قبور عربية قديمة في البحرين. مجلة لغة العرب (سنة ثانية) ج٧ ص٢٧٦.

والفلسفية والدينية والإقتصادية والأثرية والأدبية في التراث العربي الإسلامي. ومن خلال تتبعي لتطوّر الحركة الإستشراقية وجدت هناك توجهات خاصة لكل مدرسة من المدارس الإستشراقية. فالإستشراق الهولندي والفرنسي مثلاً قدعني بالدراسات اللغوية والأدبية واهتم الإستشراق الألماني والفرنسي أيضاً بالدرجة الأولى في تحقيق ودراسة الموضوعات العلمية في الحضارة العربية الإسلامية، واعتنى الإستشراق البريطاني والألماني مثلاً في دراسة العقائد الإسلامية والدين الإسلامي. أما المستشرقون الروس فقد اهتموا بدراسة التراث المتعلق بالمشرق وهكذا...

كان من نتائج هذه الاهتمامات المتنوعة أن توجّه المستشرقون لتحقيق عدد كبير من المخطوطات العربية النادرة. ومع أن بعض تحقيقاتهم قداعتمدت نسخة أو نسخاً معدودة وربما كانت أقرب للنشر منها إلى التحقيق لكن أعمالهم هذه أفادت المكتبة العربية كثيراً وذلك بإغنائها بالكتب المحقّقة.

ونالت المدينة العربية الإسلامية اهتماما متميزاً في الدراسات الإستشراقية، ولا سيما بشكل خاص الدراسات الفرنسية. فلو أحصينا ما تم تأليفه من كتب وبحوث عن المدن العربية خلال المدة الإسلامية والفترات الحديثة من المستشرقين لوجدنا الدراسات الفرنسية تمثّل نسبة عالية مقارنة بالدراسات الألمانية والإنجليزية.

وأدّى المؤرخون دوراً أساسياً في إعداد هذه الدراسات، ومما يجدر ملاحظته أن الدراسات الإستشراقية الفرنسية قد ركّزت على مدن منطقة شمال أفريقيا وبضمنها مصر،ثم تأتي مدن بلاد الشام (سوريا) بالدرجة الثانية، أما المدن العراقية فإنها كانت بالدرجة الثالثة من حيث كمية هذه الدراسات ونوعيتها[1]. وقد برز منذ أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين تطوّر هام في دراسة المدن بشكل عام والمدن العربية الإسلامية خاصة. وأقصد بذلك اهتمام المستشرقين الأمريكان. حقيقة أن عمر الإستشراق الأمريكي موازنة بالإستشراق الهولندي أو الفرنسي أو البريطاني قصير، وهو من حيث المحتوى والمنهج قد اعتمد اعتماداً كبيراً على الإستشراق الأوربي. وتتجلى هذه الحال عند دراسة السير العلمية للمستشرقين الإمريكان من أمثال رنتز Rentz وكرونباوم Von Grunebaum وهافانداكيك ورتشارد غوتهيل Gotheil

(١) د. عبد الجبار ناجي: تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي. الموسوعة الصغيرة عدد ٨٥/ ١٩٨١.

ورودولف برونو Brunnow وجورج ساتون وويتك Witteck وآدمز Ch.Adams وفيشل Fischel وكويتاين S.D.Goitein وجيل Gil وغيرهم، فأغلب هؤلاء العلماء ترجع أصولهم أما إلى ألمانيا أو هولندا أو بريطانيا. وقد أثر هذا العامل في توجيه اهتمامات المستشرقين الأمريكان بالنسبة إلى التراث العربي الأسلامي. والواقع فإن إنتاجات المستشرقين الأمريكان في هذا المجال قليلة بدرجة ملموسة موازنة بإنتاجات المستشرقين الأوربيين. ويوضح الباحث الأمريكي بيتر جران هذه المسألة بقوله:- صار ـ بعد الحرب العالمية الثانية ـ من الضروري جداً بالنسبة إلى أمريكا التوجّه، وكما عرضه المجلس الأمريكي للجمعيات العلمية، إلى استحداث علم اجتماع خاص بمنطقة الشرق الأوسط. إن صانعي السياسة الأمريكية لم يكونوا متوقعين حدوث الثورات والأنتفاضات في الوطن العربي خلال تلك المدة الحديثة لذلك تركّزت الدعوة تلك على ضرورة استحداث نوع جديد من الإستشراق وهو استشراق يركّز بالدرجة الأولى على التاريخ الحديث والمعاصر للأمة العربية لا كما هو الحال في الإستشراق الأوربي التقليدي الذي كان يولي أهمية خاصة إلى التراث العربي في المدة الإسلامية[1].

وبالفعل ـ كما رأى بيتر جران ـ فمما يلفت النظر بخصوص الإسهامات الأمريكية في دراسة المدن العربية الإسلامية إنها تركّزت أيضاً على دراسة المدينة العربية الحديثة بخلاف اتجاه الدراسات الأوربية، ولا سيما الفرنسية، التي اهتمت بدراسة المدن سواء أكانت عربية أم أوربية في العصور الوسطى. ومع هذا فإن الباحث الأمريكي لايستطيع عزل تطوّر المدينة الحديثة عن جذورها التاريخية، فهو يقدّم عرضاً تاريخياً مختصراً وسريعاً للمدينة التي يريد أن يدرسها. إن هذا الإتجاه، طبعاً، يتعارض والفلسفة التي صرّح بها لويس ممفورد الأمريكي بشأن تاريخ المدينة في الدراسات التمدنية الحضرية إذ يقول في كتابه (المدينة في التاريخ The City in History) بأنه من الضروري جداً تفّهم الجذور التاريخية للمدينة حينما نفكّر بوضع أسس جديدة مستقبلية للحياة التمدنية الحضرية، وعدم إنجاز مثل هذه المهمة يجعل الباحث لا يمتلك

---

(١) هناك قائمة بأسماء الآثاريين الذين كانوا في الوقت نفسه سياسيين أو دبلوماسيين أمثال دي بيليه ودي فوجيه من الفرنسيين، وبوكون القنصل الفرنسي في حلب ولوفتوس البريطاني الذي صار عضواً في مجلس العموم وعين وكيلاً لوزارة الخارجية وراولنسن الذي كان يشغل منصب ضابط في شركة الهند الشرقية وعين مندوباً سامياً في قاندهار.

المحفّز والدافع لاتخاذ خطوات جريئة في هذا المجال. وقول لويس ممفورد صحيح من الناحية النظرية إلا أن الواقع غير ذلك فالإتجاه العام الذي تميّزت به دراسات الباحثين الأمريكان عن المدن تبين عدم اهتمامهم بتواريخها، ولعل السبب في ذلك يعود إلى فلسفة الباحث الأمريكي واتجاه تخصصه الدقيق. إذ بينما نجد المستشرقين الأوربين الذين كتبوا عن المدينة العربية الإسلامية كانوا بالدرجة الأولى من المؤرخين؛ قبالة هذا فإن الذين ساهموا في هذا المضمار من الولايات المتحدة الأمريكية كانوا من علماء الإجتماع والإجتماع الحضري على وجه الخصوص، وهؤلاء لا يهمّهم مسألة التدقيق في تواريخ المدن ونشأتها وتطوّرها وفيما إذا كانت تتمتع بأصول تاريخية قديمة أم لا، فالمدينة عندهم هي المعاصرة أما المدن التاريخية فهي نماذج حضارية قديمة. ويرتبط بهذا التفسير تفسير حضاري آخر وهو أن المدينة الأوربية والعربية الإسلامية تتمتع بأصالة تاريخية قديمة تمتد إلى مئات بل آلاف السنين، في الوقت الذي تفتقر اليه المدينة الأمريكية إلى مثل هذه الأصالة التاريخية، إنها مدن حديثة لا تتجاوز أعمارها ثلاثمائة سنة أو أكثر قليلاً لذا فإنه لم يعد من المهم جداً بالنسبة إلى المتخصّص في المدن الأمريكية أن يجدّ بنفسه في البحث وراء تاريخها القديم. ويؤيد هذا التفسير ما ذكره الباحث الأمريكي المشهور ماكس ويبر Max Weber وهو مؤلف نظرية الخصائص الخمسة المشهورة التي اعتمدت في التمييز بين المدينة والقرية. فهو يشير إلى أن الباحث الأمريكي يعد المدن التاريخية ما هي الا مدناً قديمة فحسب، وأنها غير ملائمة في الغالب لتفسير محدّد وواضح فضلا عن صعوبة الحصول على مخرجات لهل علاقة بالكيفية التي واجهت فيها مشكلات العصر سواء في التغلب أو عدمه على المشاكل التمدنية المعاصرة التي تواجهه في أثناء البحث في شؤون المدينة. من هذا المنطلق فالباحث الإجتماعي الأمريكي قد اعتنى عناية خاصة بدراسة المشاكل المعاصرة التي تواجه المدن ـ أي مدن كانت ـ والتحديات التي تقف أمام تقدم حركة التمدن المعاصرة. إنها بالفعل مشاكل معقّدة أمثال مشكلة إزدحام الناس وتزايد الهجرة من الريف وأضطراب خطط المدينة المعاصرة ووضعها المالي وأحوالها الإقتصادية كالبطالة الفقر وعدم نظافة الشوارع والأزقة والحارات الفقيرة ومشاكل النقل والمواصلات وفساد الجو وتلوثه والعزلة الإجتماعية لبعض الشرائح الإجتماعية فيها، إلى غير ذلك من أمور موجودة وواضحة في المدينة الأمريكية في الوقت الحاضر.

صحيح أن الغالبية العظمى من الدراسات الأمريكية عن المدن العربية الإسلامية قد أسهم بها علماء[١] الإجتماع الحضري لذلك فإنهم وقعوا في عدّة أخطاء تاريخية وذلك لمجرد اعتمادهم على مواد علمية ونظريات جاهزة سبق أن توصل اليها وأنجزها مستشرقون فرنسيون متحاملون على المدينة العربية الإسلامية أو مؤيدون إيجابيون إزاءها؛أو ممن زعم أنها مدينة مقلدة للمدينة الهولندية التي ورثوها عن اليونان والرومان.أو ممن رأى منهم رأياً متطرفاً مفاده أن العرب قد دمّروا المدن القديمة الموجودة وقد أضرّوا بهيئتها العمرانية التخطيطية. فهذه الآراء المعادية والسلبية لنشوء وتطور المدينة الإسلامية قد تأثر بها علماء الإجتماع الأمريكان بفعل آراء وتفسيرات كل من سوفاجيه وبلانهول من فرنسا، لكنها في الحقيقة غير صحيحة. فقد درس سوفاجيه مثلاً مدينة حلب في سوريا، ووجد أنها مدينة رومانية[٢]، غير أن مدينة حلب لا تعدّ قياساً عاما يطبّق على جميع المدن العربية الإسلامية. فهي مدينة قديمة ترجع أصولها إلى المدة الكنعانية، لا كما يرى سوفاجيه، إلى المدة الرومانية. وأن العرب عندما فتحوها إبان عمليات الفتوح وجدوها مدينة كاملة وثابتة الخطط العمرانية، ومع ذلك فإنهم أضافوا إليها إضافات جديدة ونظّموا هيأتها العمرانية وبنيتها الداخلية. في الجانب الآخر فإن هناك مدناً عربية أخرى لم تكن موجودة أصلا قبل مجيء المسلمين في الفتوحات في القرن السابع الميلادي كالبصرة والكوفة والموصل والفسطاط وبغداد والقيروان وغيرها من المدن العديدة. وهي مدن عربية في الأصل والتخطيط والتكوين. وبالفعل فقد ردّ عدد من المستشرقين المؤرخين الأمريكان على استنتاجات علماء الإجتماع الحضري تلك بأدلّة تاريخية ووثائقية جديدة فالمستشرق كويتاين مثلاً أدلى بعدة وثائق من وثائق الجنيزا المهمّة جداً تؤكد حب العربي لسكنى المدينة وتعلّقه بها وحبّه الشديد للبناء والعمارة إلى حدّ الصرف الباذخ[٣]. ويؤكد المستشرق المؤرخ لابيدوس فكرة حب المسلم للمدينة وتفاخره بها وتفضيل سكنى مدينته على المدن الأخرى أو على سكنى القرية والريف. فضلا عن أن الدين الإسلامي هو دين مدني

---

(١) د. عبد الجبار ناجي: المدينة العربية الإسلامية في الدراسات الأجنبية (دراسة نقدية مقارنة) مجلة المورد / عدد ١٩٨١ ص ١٣٦-١٧٠.

(٢) عبد الجبار ناجي: الاستشراق ص ٥١.

(٣) بيتر جران: حركة الاستشراق وتطور الرأسمالية في الولايات المتحدة. مجلة الثقافة / عدد٤/ ١٩٧٩ ص ٥٧-٧٩.

بطبعه، وأن العرب لم يدمّروا المدن القديمة إنما أسهموا في تأسيس الكثير من المدن الجديدة[١].

من هنا فدراسة المدينة العربية الإسلامية لم تبق محصورة في نطاق البحث الإجتماعي من قبل علماء الإجتماع الحضري، إنمّا أسهم المؤرخون المستشرقون في ذلك، وكانت لدراساتهم أثر أقوى؛ وذلك لأنهم قد اعتمدوا على معلومات تاريخية أصيلة لا كما فعل علماء الإجتماع الحضريفي الاعتماد على المواد الجاهزة البسيطة والأقتباس من المستشرقين الآخرين فقط. وأول مبادرة تستحق الدراسة هي الندوة العلمية التي عقدت في مدينة لويس أنجلز في كالفورنيا عام ١٩٦٦. وهي ندوة أبرزت دور المستشرق الأمريكي في مضمار الكتابة التاريخية عن المدينة العربية الإسلامية. وكان عنوان هذه الندوة (مدن الشرق الأوسط Middle Eastern Cities)[٢] وقد استمر انعقادها لمدة ثلاثة أيام من ٢٧ تشرين الأول حتى ٢٩ منه. وطغى إسهام المؤرخين فيها على البحوث الإجتماعية التي أعدّها علماء الإجتماع الحضري، واشتملت البحوث المقدّمة فيها على محورين: - المدن العربية الإسلامية والمدن العربية الحديثة والمعاصرة. والمهم أن قراءة الخلاصة النقديّة التي كتبها البروفسور آدمز Adams المشهور في حقل الدراسات التمدنية والذي ألف كتاباً هاما عن تطور المجتمع التمدني وآخر عن تاريخ الاستقرار التمدني في سهول[٣] ديالى، تبين بجلاء التطوّر الكبير الذي شهده الفكر التاريخي في الإستشراق الأمريكي إذ يقول ما ترجمته:- المدينة الإسلامية على الرغم من أنها منعزلة وغير ثابتة نسبياً فإنها تجمعها وأخواتها المدن الأخرى روابط وظيفية هامة، كما أنها تشتمل على فضائل مشتركة وأنظمة إدارية موحّدة تميّزت بها دون غيرها. وقد أعطتها، هذه الروابط والفضائل المشتركة، القوة والحياة لكي تبقى فاعلة حيّة لها دور مهم كمراكز ثقافية مهمة[٤].

بالفعل لو قرأنا البحوث التي قدّمها المستشرقون الأمريكان لوجدنا فلسفتهم قائمة

---

(1) L.Mumford: The City (New York 1961) p.3 وقد ترجم إلى اللغة العربية.

(2) Max Weber: The City (New York 1968) p. 81.

(٣) من بحث كيدون سجوبيرج Sjoberg وبيرت هوسلتز Hoselitz وبينيت Benet وهاموند Hammond وغيرهم.

(4) Sauvaget, J: Alep (Paris 1941).

على إيجاد الروابط المشتركة بين المدن العربية الإسلامية، فالورقة التي تقدّم بها البروفسور اوبنهايم تركّز على مسائل طريفة في المدن العراقية القديمة أمثال علاقتها بالضواحي المحيطة بها، وبنيتها الداخلية، والتركيب الإجتماعي لسكانها، وإدارتها، والحياة العائلية والمعاشية فيها، ومؤسساتها ومدى استقلاليتها[١]. وبصورة أدق إنها تدور في محور الاهتمامات الأساس للإستشراق الأمريكي الذي سبق ذكرها آنفاً. كذلك نجد البحث الذي كتبه أوليك كريبر Oleg Graber المنشور في كتاب (الإسلام والعالم الإسلامي) حول (المدينة وأهاليها)، يركّز فيه على جوانب اجتماعية خاصة بالبنية الداخلية للمدينة العربية الإسلامية تلك المتعلقة بالمواطنة ومدى ارتباط الفرد العربي بمدينته، كما يتناول الجانب الإنتاجي الإقتصادي للمدينة الإسلامية ومصادر ثرواتها، وتوزيع وحداتها العمرانية، ومحلاتها، ومصادر مياه الشرب فيها[٢]. وكذلك الحال بالنسبة إلى ما كتبه المستشرق كويتاين اعتماداً على وثائق الجنيزا حول الأحوال العمرانية والإجتماعية والإدارية في المدينة العربية الإسلامية.

إتجهت دراسات الباحثين والمستشرقين الأمريكان في دراسة المدن العربية إلى عدة محاور أهمها الإتجاه الذي سبق ذكره وهو المتمثل بالدراسات التي تناولت المدينة العربية من حيث أهميتها الحضارية كوحدة أجتماعية إقتصادية على ضوء تفسيرات علماء الإجتماع الحضري. أما الإتجاه الآخر فيتمثّل بالدراسات التي ركّزت على مدينة عربية واحدة من المدن العربية الإسلامية. وهو الميدان الذي أدّى فيه المؤرخون المستشرقون دوراً متميزاً والذي سنسلّط بعض الأضواء على جوانبه الجديدة بالنسبة إلى حقل المدن.

لقد اختلفت الموضوعات التي استهوت المستشرقين الأمريكان في المدينة الإسلامية عن تلك التي تركّزت عليها اهتمامات المستشرقين الأوربيين، إذ إن الأمريكان أولوا أهمية إلى الجوانب العمرانية والأحوال الإجتماعية والجوانب الصحية ومشكلة مدى توفّر مياه الشرب وتصريفه والجوانب الأثرية. فالمستشرق المعروف يعقوب لاسنر J.Lassner إختص بمدينة بغداد المدورة فكتب كتاباً عن الأصول العمرانية أو الطبوغرافية فيها خلال أوائل العصور الوسطى، كما كتب بحثاً

(١) ناقشت هذه الفكرة في كتابي (دراسات عن المدن العربية الإسلامية) تحت الطبع.

(2) Goitein, S.D.: "Cairo: An Islamic city in the light of the Geniza Docments" in M.E. Cities (1966)p. 83.

عن خطط مدينة بغداد ولاسيما قصر الخليفة المعروف بقصر الذهب[١]. ومن آرائه التاريخية في نشوء هذه المدينة وعلاقتها بفلسفة التمدن العربي الأسلامي قوله:- نشوء الأمصار الإسلامية لم يكن متأثرا بأي مؤثر خارجي إنما كانت مدناً ذاتية عربية خالصة. وعندما يتحدث عن واقع التمدن العربي مقارنة بالتمدن المجاور الساساني والبيزنطي يقول: إن سعة التمدن العربي في العراق كان واسعاً وإنه، باستثناء مدينة بغداد وسامراء، يمثل نسبة ٣٣٪ من مجموع المنطقة التمدنية المستقرة. وهي نسبة عالية، فإذا ما أضفنا إليها بغداد وسامراء فإنها تقفز لتعادل أربعة أضعاف نسبة التمدن والإستقرار الحضري في العصر الساساني. ويخلص إلى نتيجة مفادها أن نمو المدن الإسلامية قد بلغ إلى اكبر درجة من التطوّر التمدني الحضري قبل الأزمنة الحاضرة. ويروي أيضاً بأن مجموعة (القصر + الجامع)، وهي وحدات طبوغرافية إتسمت بها المدينة الإسلامية، أصبحت السمة الأثرية للمدينة الإسلامية ويرجع تاريخها إلى مدة الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي[٢]. ومن المستشرقين الآخرين جيمس روجرز J.M.Rogers الذي كتب عن (مدينة سامراء) وهي دراسة في تخطيط المدينة وتحديد وحداتها الطبوغرافية. وقد أشار فيها إلى المحور السابق أيضاً وهو أن مدينة سامراء كانت أنموذجا للمدينة الإسلامية وكانت تختلف بوضوح عن أية مدينة هيلنية أو يونانية. أن مدينة سامراء، كما يرى روجرز لاتعدّ ظاهرة تمدنية منعزلة بل هي جزء من تطوّر تمدني تعود أصوله التاريخية إلى المدة الأموية، إذ اعتاد الخلفاء آنذاك في اتخاذ مراكز حضرية مستقرّة في الصحراء[٣].

ولم يغفل المستشرقون الأمريكان دراسة مدن شمال أفريقيا، والحقيقة أنهم - كالمستشرقين الفرنسيين - عنوا بدراسة هذه المدن كثيراً فقد ألف آدمون البرت E.A.Alport دراسة عن المدن التي أسسها خوارج شمال أفريقيا في منطقة المزاب كمدينة تاهرت التي أصحبت عاصمة لإمارة تاهرت ومدينة سدرتا وبونورا ومليكة[٤]. ودرس براون L.Carl Brown المدينة في شمال أفريقيا في بحثه (دور الإسلام في شمال

(1) Ira Lapidus, (Muslim Cities and Islamic society) in ME. Cities, p. 75.

(2) Symoposium on Middle Eastern Cities (1969).

(3) Robert Mcc. Adams: Land Behind Baghdad: A History of settlement on Diyala Plains (1965) وقد ترجم إلى اللغة العربية.

(4) Middle Eastern cities (Los Angles 1969) p. 74.

أفريقيا) وركّز فيها على حركة التمدن العربي في المغرب إبان المدة الإسلامية. ودرس وليم سبنسر W.Spenser التمدن في شمال أفريقيا إذ تتبع في دراسته الجذور التاريخية للمدينة العربية منذ الفترات القديمة ثم الإسلامية والعثمانية، بحثاً وراء السمات المشتركة لحركة التمدن العربي. وأخيراً وليس آخراً فإن هناك دراسة تاريخية إثرية قام بها جورج سكانلون Scanlon عن الخدمات الصحية[١] والسكن في مدينة إسلامية في العصر الوسيط، وقد تناول فيها موضوعات طريفة منها اهتمام العرب بنظافة المدن موضحاً بأن هناك نظاما خاصاً في كل مدينة وأن السلطة هي المسؤولة عن توفير المياه للناس. كما أن المدينة العربية تميّزت من غيرها بوجود موظف مختص بشؤون النظافة[٢] ومراقبة الباعة وهو المحتسب، فهو يهتم بتزويد السكك والأسواق بالماء يومياً، كما أنه كان يراقب الحوانيت ويجبر أصحابها على تنظيف الأجزاء المواجهة لحوانيتهم ورشّ البقعة بالماء لتمنع تطاير التراب في أثناء مرور الناس والدواب. فضلا عن أن المحتسب كان معنياً بتنظيم الشوارع للتغلب على مشكلة التزاحم. ومن إجراءاته التنظيمية هذه تحديد أنواع الدواب والحيوانات المسموح لها الدخول إلى داخل المدينة. وتخصيص محلات ومربعات خاصة لربط الحيوانات[٣].

تظهر هذه الدراسات عن بعض الجوانب التي أسهم فيها الإستشراق الأمريكي في دراسة تراثنا العربي، وعلى الرغم من أن بعض هؤلاء المستشرقين قد قلد النتائج السلبية التي توصل إليها عدد من المستشرقين الفرنسيين والبريطانيين[٤] بخصوص المدينة العربية الإسلامية. لكن من الواضح أنهم انشغلوا بالبحث عن معلومات تؤيد وجهات نظرهم المعاصرة بشأن المدينة ومشاكلها وكيفية التغلب على هذه المشاكل فجاءت بعض دراساتهم بآراء ومعلومات طريفة تستحق الدراسة والتعليق. ومن هؤلاء الذين رجعوا إلى الوثائق التاريخية في سبيل الردّ على آراء علماء الإجتماع الحضري المستشرق كويتاين Goitein الذي كتب العديد من البحوث والكتب التي تناولت

---

(1) Oppenheim: (Ancient Iraqi cities) in Me, cities p. 102.

(2) Oleg Graber: Cities and Citizens: (The Growth and Culture of Urban Islam) in Islam and Arab World USA 1969) P. 89-116.

(3) J.Lassner: "The caliph's personal domain: the city plan of Baghdad" in the Islamic city (oxford 1970) pp. 103-18, The Topography of Baghdad in the early Middle Ages (Detroit 1970).

(4) J.Lassner: The Topgraphy of Baghadad, p. 103,133-134, 138-39.164.

جوانب مختلفة من التاريخ السياسي والإداري والإجتماعي والإقتصادي في المدة الإسلامية استناداً إلى الوثائق المعروفة بالجنيزا التي تم العثور على كميات هائلة جداً منها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر فكتب مثلاً كتاباً وقد ترجم إلى اللغة العربية بعنوان (المؤسسات الإسلامية) وكتاباً آخر عن (مجتمع البحر المتوسط). ومن بين بحوثه الهامة (ظهور البرجوازية في الفترات الإسلامية الأولى) وبحث (القاهرة:- مدينة إسلامية في ضوء وثائق الجنيزا)[1]. وفي هذا البحث مثلاً فقد وقف على أصل كلمة مدينة مشيراً إلى أنها ترجع إلى أصل آرامي وتعني كلمة (دين Din) العدالة، فالمدينة إذن هي المكان الذي تطبق فيه العدالة، وفيها يقيم أعضاء الحكومة ويسود فيها الأمن والاستقرار أكثر من أي منطقة أخرى. ويعلّق البروفسور كويتاين على العلاقة بين الريف والمدينة العربية، فيشير إلى أن الفلاحين كانوا معتادين على دخول المدينة من الضواحي أيام الجمعة لأداء فريضة الصلاة[2] الحامعة ولينشطوا في أسواقها للتبادل البضائعي. والحقيقة أننا لا نريد هنا مناقشة رأي البروفسور كويتاين فيما يتعلق بأصل كلمة مدينة، فقد بحثت هذا الموضوع بشكل مستفيض في بحث عنوانه (مفهوم العرب المسلمين للمدينة) واعتمدت فيه على التحديدات اللغوية العربية أو الفقهية وما ورد في هذا الشأن في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والمصادر الجغرافية العربية؛ فوجدت أن إرجاع أصل المدينة إلى (دين) بمعنى العدالة موجود عند اللغويين العرب وأن اسم الفاعل الديّان التي تعني الحاكم قد وردت أيضاً في عدة أحاديث نبوية شريفة، فالجذر (دين)[3] إشارة إلى المدينة هو جذرعربيّ.

على أية حال فالمستشرق كويتاين[4] عرّج في بحثه عن مدينة القاهرة على مسألة طريفة تمثل ردّاً صريحاً على الآراء التي تقلّل من أهمية المدينة العربية وجعلها مدينة مقلدة للمدينة الهيلنية والرومانية[5]، تلك المتعلقة بالمؤسسات المدينية وأهمها النقابة

---

(1) J.M. Rogers: Samarra, a study in Medieval Town- Planning (in the IslamicCity) p. 120,123.

(2) E.Alport: (The Mzab) in Arab and Berbers (London 1972) pp. 144-164.

(3) Carl- L. Brown: Islam's role in North Africa) in Man, state and society in contemporary Maghrib.

(4) W. Spencer: Urbanization in North Africa.

(5) George. T. Scanlon: Housing and sanitation, (some Aspects of Medieval Isla-mic public service) in Islamic city pp. 179-94.

فتناول مهمات النقابة في المدينة وصلاحياتها الإجتماعية والإقتصادية والإدارية وأنها معنيّة بمراقبة عمل أعضائها وذلك لدعم وتطور مستوياتهم المهنية وتقوم بتهيئة مستلزمات توعية وتدريب الصناع وضمهم إلى الصنف أو النقابة، وتقوم أيضاً بحماية أعضائها من أي منافسة. ويؤكد بأن مثل هذه الوظائف والمسؤوليات موجودة في المدينة العربية الإسلامية. ويردّ أيضاً على الرأي الذي يبيّن ضعف العلاقة بين الفرد العربي ومدينته فيقول إن المسلمين كانوا ميالين إلى العيش في المدن ويرجع إليهم الفضل الكبير في اتخاذ المدن العديدة وبناء البيوت وغيرها من الوحدات العمرانية، ويشير إلى فضل (هذه الثورة التمدنية التي جاء بها الإسلام على التاريخ التمدني العالمي).ويستشهد كويتاين للبرهنة على حب العرب العيش في المدينة بما يحتويه الأدب العربي من أمثلة غير قليلة عن البذخ المتزايد الذي بذخه الخلفاء الأغنياء والمترفون في تشييد البيوت والعمران والمشاهد والمساجد، ويضيف قائلا: إن العرب الذين أسّسوا الأمصار الإسلامية الأولى كالبصرة والكوفة والفسطاط كانوا من أشد المحبين للبناء والعمران[١]. وأورد نصّ عقد زواج اشترط فيه أهل الزوجة بأن لا يبدل الزوج محل سكناه من المدينة إلى الريف دون موافقة الزوجة، وأشار إلى رسالة أخرى تبين أن إحدى الزوجات لم تتحمل العيش في الريف فتحايلت على زوجها وهربت منه إلى القاهرة، فرضخ الزوج لمطلب زوجه بالإنتقال من الريف فذهب إلى مدينة دمياط[٢]. أنها استشهادات مهمة تدلّل على حب المسلم للسكن في المدينة؛ لذلك يقول كويتاين بأنه من الخطأ الكبير أن نعزو إلى البدوي قلّة التذوق للعيش في المدينة أوتفضيله الصحراء عليها.

أما ايرا لابيدوس Ira Lapidus فقد كان متخصصاً[٣] هو الآخر بدراسة المدن فكتب كتاباً عن (المدن الإسلامية في العصور الوسطى المتأخرة) وبحوثاً عدّة منها بحثه الموسوم بـ (المدن الإسلامية والمجتمع الإسلامي)[٤]. لقد لخص لابيدوس رأيه في إسهام العرب في بناء المدن بقوله: - إن الفتح العربي الإسلامي لم يهدّم المدن القديمة

---

(1) Goitein: (Cairo: An Islamic City) p. 82.94.

(٢) د. عبد الجبار ناجي: مفهوم العرب للمدينة الإسلامية، مجلة المدينة العربية (الكويت السنة الثالثة ١٩٨٤)؟

(3) Goitein, Op.Cit, (Cairo) p. 94.

(4) Goitein, Cairo, p. 83.

(وهو في هذا الإستنتاج يردّ على آراء المستشرقين الأوربيين وعلى عدد من علماء الإجتماع التمدني الأمريكان التي تجعل العرب والفتوحات العربية السبب الرئيس في تدمير وفي عملية إنهاء الرخاء في مدن البحر المتوسط) فيقول البروفسور لابيدوس (٣٦):- إن هذه المدن القديمة أمثال قرطاج وأثينا والمدائن قد انتهت وظيفتها التمدنية كمدينة مركزية (Polis) بوليس قبل ابتداء حركات الفتوحات بمدة طويلة. فالمسلمون ـ كما يرى لابيدوس ـ على خلاف ذلك قد أسسوا عدداً من المدن الجديدة المهمة جداً بهدف استقرار القبائل البدوية المشاركة في عمليات الفتح. ويصل إلى استنتاج مفاده أن الدويلات الإسلامية قد قدمت دفعاً كبيراً لحركة التمدن وساعدت كثيراً على توسيع التمدن ونشره إلى مختلف الأرجاء التي وصلتها الجيوش العربية. إن العرب لم يقتصروا على إيجاد مدن جديدة فحسب إنما عمروا المدن القديمة ووسعوها جغرافياً بتأسيس الضواحي المحيطة بها، والأنموذج الواضح تاريخياً على هذه الحركة التمدنية قيام الأمراء باتخاذ قصورهم في ضواحي المدن القديمة ونقلهم إليها الدواوين والإدارة والجيش. فساعد ذلك على إبراز مدن محيطة بالمدينة الأم (وهو ما يسمى بالمدن المركبة) كما أكّد البروفسور لابيدوس[١] مسألة حب العربي لمدينته وتفاخره بها فضلا عن وقوفه على مسألة سعة المدينة العربية وكثافة سكانها وكبر حجمها فيقول إن مدناً أمثال بغداد والقاهرة قد بلغ تعداد سكّانها بـ ٢٠٠,٠٠٠ ألف أو ٣٠٠,٠٠٠ ألف نسمة وهو عدد يكبر حجم سكّان أي مدينة سبق أن وجدت في هذه المنطقة[٢].

(1) Ira M. Lapidus: Muslim cities and Islamic Society" in ME. Cities, idem Muslim cities in the later Middle Ages (1967).

(2) Lapidus: Middle Eastern Cities (introduction) p. 22, idem Muslim cities and Islamic Society" p. 61,63, idem Muslim Cities in the later Middle Ages, p. 196, 199, 200.